Jerash for Research and Studies Journal مجلة جرش للبحوث والدراسات

Volume 11 | Issue 1 Article 2

2010

The Architecture of Forts in The Arabian Peninsula in the Pre-Islamic Period

Hani Al-Qahtani
King Faisal University, Saudi Arabia, HaniAl-Qahtani@yahoo.com

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jpu

Part of the History Commons, and the Social and Behavioral Sciences Commons

Recommended Citation

Al-Qahtani, Hani (2010) "The Architecture of Forts in The Arabian Peninsula in the Pre-Islamic Period," *Jerash for Research and Studies Journal مجلة جرش للبحوث والدراسات*: Vol. 11 : Iss. 1 , Article 2.
Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jpu/vol11/iss1/2

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Jerash for Research and Studies Journal مجلة جرش للبحوث والدراسات by an authorized editor. The journal is hosted on Digital Commons, an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aaru.edu.jo, marah@aaru.edu.jo, u.murad@aaru.edu.jo.

Al-Qahtani: The Architecture of Forts in The Arabian Peninsula in the Pre-Isl

عمارة الحصون في شبه الجزيرة العربية في مرحلة ماقبل وصدر الاسلام

هاني محمد الجواهرة القحطاني *

تاريخ تقديم البحث : ٣٠ / ٥ / ٢٠٠٦ تاريخ قبوله للنشر : ١٣ / ٣ / ٢٠٠٧

مقدمة

مازالت تصوراتنا عن العمارة في فترة ماقبل الاسلام والفترة الاسلامية المبكرة في شبه الجزيرة العربية بحاجة الى الكثير من المعرفة. وفي حقيقة الامر فان هناك صعوبات جمة تكتنف البحث في هذا الجانب لاسباب مختلفة. فنظرا لتقادم عهد هذه الفترة فان هذه العمارة او ماتبقى منها هي الان مجرد اطلال، وهو مايعزز من اهمية البحوث والتنقيبات الاثرية (١) لاماطة اللثام عن هذا الجانب. غير ان بطء عمليات التنقيب الاثري وانتقائيتها احيانا ومايرافق اعلان نتائج تلك التنقيبات يؤدي عادة الى نتائج محدودة في هذا المجال. تبقى امهات الكتب العربية في التاريخ والجغرافيا والاداب والسير مصادر مهمة على هذا الصعيد. غير ان طريقة تناول هذه الكتب لمواضيعها لاتاتي من بعيد او قريب على ذكر مفصل للجوانب المعمارية المراد التعرف عليها الا فيما ندر. تزخر كتب المؤرخين والجغرافيين العرب (٢) بأسماء لبعض المواقع الجغرافية أو لمبان من دون ذكر لتفاصيلها. وربما كانت المباني الدفاعية كالحصون (٣) هي اكثر المباني التي يتم ذكرها من دون اعطاء اي وصف ذي شأن لعمارة هذه الحصون. إن دراسة عمارة الحصون في الجزيرة العربية قبل وأثناء وبعيد انتشار الإسلام خارج جزيرة العرب قد يلقي الضوء على مدى التأثير الذي قد تكون هذه العمارة أحدثته على العمارة الإسلامية التي تطورت لاحقا داخل أو خارج شبه جزيرة العرب. ومن هنا تنبع أهمية هذا النوع من الأبنية للتعرف على خصائصها وأشكالها المعمارية وأدائها الوظيفي التي بنيت من اجله. ونظرا لكثرة وتسارع وتيرة الفتوحات الإسلامية في القرون الهجرية الأولى تصبح هذه الحصون أمرا جديرا بالدراسة. ففي ذلك فهم للأشكال والخصائص المعمارية لهذه الحصون كما أن فيه قراءة أخرى للجوانب الاجتماعية السائدة آنذاك. ونظرا لتعدد الأقاليم في شبه الجزيرة العربية فقد تناولت الدراسة بعض مناطق الجزيرة العربية كاليمن وعسير وبعض الحصون في المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية المتاخمة لحدود العرق. وقد اختيرت هذه المناطق لكونها مازالت محافظة على بعض أنواع الحصون التي يمكن معها مقارنتها بما ذكر في المصادر التاريخية المتاحة.

منهاج البحث

وفي ضوء ذلك يأتي هذا البحث كنتيجة لما توفر من معلومات إما عن طريق البحث الميداني (٤) المنشورة نتائجه في دوريات علمية او تقارير فصلية متخصصة أو لما توفر من مادة علمية عن العمارة في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية ومقارنتها بما ذكره المؤرخون والجغرافيون العرب عن

* أستاذ مساعد / جامعة الملك فيصل / كلية العمارة والتخطيط / السعودية

Published by Arab Journals Platform, 2010

Jerash for Research and Studies Journal ???? ??? ?????? ?????????, Vol. 11 [2010], Iss. 1, Art. 2

أشكال البناء التي كانت سائدة في هذه المناطق وماجاورها إبان الفتح الإسلامي للدول المتاخمة للجزيرة العربية كالعراق وبلاد الشام. ونظرا لمحدودية المادة المقصودة بالبحث في عددها وفي ماتوفر عنها من مادة علمية فان ذلك قد ادى الى انتقائية حتمية في الحصون التي شملتها الدراسة وذلك امر يفرضه الواقع المتعلق بالدراسات المتعلقة بهذا الجانب من تاريخ العرب. كما أن بعض الحصون التي مازالت بقاياها قائمة إلى اليوم أو بعض منها – والتي سيرد ذكرها في هذا البحث – مازال يحتفظ بأصوله المعمارية التي يبدو أنها لم تتغير كثيرا بمرور الزمن، وبالتالي فان هذه الحصون قد تساعد في ردم الهوة بين ما كانت عليه هذه الحصون في العصور الإسلامية المبكرة وبين ما هو عليه حالها الآن. كما يعتمد البحث على محاولة استخلاص مايمكن فهمه من وصف المؤرخين والجغرافيين العرب كما وردت في كتبهم لفهم عمارة هذه الحصون بالرغم من صعوبة هذه المهمة. وفي هذا السياق لابد من الاشارة الى ان بعض العبارت والمفردات التي قد يستفاد منها في الاستدلال على عمارة هذه الابنية تاني في سياق ادبي او قصصي مما يستوجب التمييز بين الجانب الادبي او المجازي في النص الذي ترد فيه هذه العبارات وبين الجانب الموضوعي لها. وهذا يتطلب التدقيق في المصطلحات والكلمات التي استخدمت في وصف هذه الحصون لوضعها في سياقها الصحيح في هذا البحث ومن هنا فان الجانب اللغوي على قدر كبير من الاهمية في هذه الدراسة.

القصور (الابراج) القديمة في جنوب الجزيرة العربية

برج (قصر) غمدان

يصف الهمداني (٥) قصر غمدان بانه " اعجب واشهر قصور اليمن." بناه سام بن نوح بجوار بئر ماء كانت تسمى الكرامة في سفح جبل. وقد استخدم القصر من قبل عدد متعاقب من ملوك اليمن كمقر لحكمهم. كان للقصر عشرون طابقا " غرف بعضها فوق بعض". كان القصر من العلو بحيث ان ظله كان يرى من مسيرة ثلاثة اميال. الدور الاعلى في القصر حيث كان يجلس الملك في اوقات راحته، كان مربعا بطول اثني عشر ذراعا. كانت الغرفة – حيث يجلس الملك – مكسية بالرخام وكان لها اربعة ابواب يفتح كل منها باتجاه الجهات الاصلية الاربع. كما يورد الهمداني ان كل جهة من جهات القصر بنيت من حجر ذي لون مختلف. هذه الالوان هي: الابيض، الاسود، الاخضر، والاحمر. بينما يورد القزويني (٦) ان هذه الالوان هي: الاحمر، الابيض، الاصفر والاخضر. وهذا مايرجحه بعض الدارسين (٧) والذي يؤكد فيه ايضا على ان خشب الساج والرخام استخدم في بناء القصر. كما ان القصر قد زين في الزوايا الاربع من سطحه باربعة تماثيل لرؤوس وصدور اسود اربعة مصنوعه من الفضة، بارزة من الجدران كانت تصدر اصواتا كزئير الاسود عند هبوب الرياح عليها من مسافات بعيدة. وكنت المصابيح تسرج في القصر فيبدو لامعا كالبرق. وقد هدم القصر (٨) بناءا على اوامر الخليفة الراشد عثمان بن عفان. ومازالت اثاره مجاورة لجامع صنعاء الكبير ومازالت بئر الماء تلك تستخدم للوضوء الى اليوم.

وفي موضع اخر اورد ياقوت الحموي (٩) في معجمه مايلي:

"..... وغمد الشيء: غشاؤه ولبسته، فكأن هذا القصر غشاء لما دونه من المقاصير والابنية، قال هشام بن محمد بن السائب ابكلبي: ان ليشرح بن يحصب اراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطيوة فاحضر البنائين والمقدرين لذلك فمدوا الخيط ليقدروه فانقضت على الخيط حدأة فذهبت به فاتبعوه حتى

https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jpu/vol11/iss1/2 2

القته في موضع غمدان فقال ليشرح: ابنوا القصر في هذا المكان، فبني هناك على اربعة اوجه وجه ابيض ووجه احمر ووجه اصفر ووجه اخضر، وبني في داخله قصرا على سبعة سقوف بين كل سقفين منها اربعون ذراعا ....وكان يأمر بالمصابيح فتسرج في ذلك البيت ليلا فكان سائر القصر يلمع من ظاهره كما يلمع البرق، فاذا اشرف عليه الانسان من بعض الطرق ظنه برقا او مطرا ولايعلم ان ذلك ضوء المصابيح."

هذا ملخص لاهم المعالم المعمارية للقصر كما ورد ذكرها في هذه المصادر. بداية تتضح الاهمية الحاسمة لمصدر الماء كعامل اساسي في اختيار مكان بناء القصر. وهذه سمة مشتركة بين معظم الابنية المحصنة قديما وحديثا في كافة ارجاء الجزيرة العربية كما سنرى في سياق هذا البحث. وياتي التاكيد على ذكر البئر واحتوائها داخل القصر ليؤكد على ان القصر كان يستخدم كحصن ايضا. حيث يتم الاعتماد على ماء البئر في اوقات الحصار. ومن المعروف ان القصور كانت بالضرورة محصنة كما ان الحصون قد تحتوي على قصور بداخلها. ويعتبر التداخل بين مصطلحي القصر والحصن للدلالة على نوع واحد من البناء امرا شائعا في المصادر التاريخية والجغرافية. وهذا يعكس الطبيعة المزدوجة لهذه الابنية التي تستخدم للسكنى وللدفاع معا وهي خاصية ملازمة للعمارة العربية منذ القدم واستمرت حتى اصبحت سمة اساسية من سمات العمارة الاسلامية لاحقا.

يتضح من وصف الهمداني ان قصر غمدان - وهذا امر بديهي - كان على شكل برج تماما كما هو عليه الحال في الابراج المنتشرة في كافة انحاء اليمن. وبالتالي فان مصطلح القصر هنا يعني البرج العالي الارتفاع وهو الطراز السائد في اليمن من قبل الاسلام وحتى اليوم. غير ان ارتفاع القصر (البرج) يظل محل تساؤل. فالعشرون طابقا التي وردت في هذا الوصف تجعل منه قصرا عاليا جدا بحيث انه قد يكون من المستحيل بناءه بالاساليب المتعارف عليها انذاك. واذا ماأخذت ابراج مدينة شبام التقليدية في جنوب اليمن(شكل ١) والتي تعتبر اعلى ابراج في اليمن ومن اعلى الابراج التقليدية في العالم فان ارتفاع اعلاها لايتجاوز ثمانية طوابق على اكثر تقدير. ومن هنا فقد يكون معنى كلمة " طابق " التي وردت في وصف الهمداني معنى اخر. وبمراجعة بسيطة لمعجم لسان العرب (١٠) فان الكلمة لايفهم منها بالضرورة معنى دور واحد بالكامل كما قد يفهم من العبارة. او قد يكون البرج مقسما افقيا الى عدد من الاقسام يبلغ مجموع طوابقها عشرون طابقا خصوصا وان كلمة " طابق" تستخدم في وادي حضرموت باليمن (١١) لتعني القصر وبالتحديد البيوت المبنية من طوب الطين في تمييز لها عن البيوت العادية. كما ان كلمة طابق في بعض مناطق اليمن تعني بيتا واحدا منفصلا عن او متصلا بجواره. من جهة اخرى فانه عند مقارنة ابراج الحصون السكنية في بعض مناطق اليمن فانه يلاحظ اتساع قاعدتها واعتمادها دوما على الشكل المربع حيث يبدو البرج الواحد وكانه مكون من اربعة اجزاء. وهكذا فربما كان قصر غمدان قد بني بهذه الطريقة. وربما كانت العشرون طابقا الواردة في عبارة الهمداني تعني مجموع طوابق الاجزاء الاربعة التي كان يتكون منها القصر. وقد تعني الكلمة حسب نفس المعجم غطاء البرج خصوصا وان جذر الكلمة مشتق من كلمة" غمد" وهو بيت السيف وقد يكون ذلك مصدر تسمية القصر. وبالتالي فانه قد يرجح ان تكون الطبقات (مواد البناء) التي استخدمت في بناء القصر يبلغ عددها عشرون. أي ان تكون مواد البناء قد رتبت في اشكال زخرفية او خطوط في طبقات يبلغ عددها العشرون. وعلى اية حال فان جذر الكلمة

"طبق" كثيرا مايستخدم للدلالة على جزء من شي مثل : ساعة من نهار، او ليل، او قرن باكمله، او تعني منزلة او مرتبة. اما رؤية ظل القصر من مسيرة ثلاثة اميال فمن المرجح ان المقصود هنا ظل البرج في اوقات شروق الشمس وغروبها لان زاوية سقوط الشمس تكون عادة منخفضة مما يتسبب في ظلال بعيدة. والحال ليس كذلك في اوقات الظهيرة. ويبدو ايضا من هذه العبارة تحديدا ان المنطقة المحيطة بالقصر لم تكن جبالا او ابراجا عالية تقف عائقا امام ظل البرج مما يعني انه بني في فسحة من الارض تكفي لظله ان يرى من مسافة ثلاثة اميال.كما يبرز من وصف الهمداني للقصر استحواذ الملك على الجزء العلوي من القصر وتخصيصه لاوقات خلوته. وفي ذلك معنى رمزيا فمن اعلى البرج يمكن للملك ان يشرف على سائر جهات مملكته الاربع شمالها وجنوبها شرقيها وغربيها. وعادة مايكون علو البرج اكثر خصوصية كما هو الحال عليه اليوم في الحصون السكنية في اليمن حيث يقتصر علو الحصن على ساكنيه فقط. كما ان اهمية علو البرج قد تم التاكيد عليها برؤوس الاسود. اما من الخارج فان المصادر تتفق على ان كل جهة من جهات البرج لها لون مختلف وان اختلفت هذه المصادر في تحديد هذه الالوان وترتيبها بجوار بعضها البعض.

ويستدل من وصف ياقوت للقصر ارتفاعه المفرط كما يستدل ايضا على قدم مفاهيم الاضاءة الاصطناعية في هذا النوع العالي من الابنية. كما ان تشبيه دور هذه المصابيح واستخدام الزائر للقصر يوحي بعلاقة وثيقة بين فراغات القصر بارتفاعاتها الكبيرة وبين الاضاءة الاصطناعية وهو ماجعل الرواة يشبهونها بالبرق في اشارة للدور الذي تلعبه هذه المصابيح في عمارة القصر.

ونظرا لشهرة القصر فقد تغنى به الشعراء. ومن الاوصاف التي قيلت عنه ان القصر (١٢) في علوه كان معصبا بعمامة من السحب ومغطى بالجبس. وفي هذا اشارة الى ان القصر في اعلاه كان محاطا بخطوط ذات ارتفاع معين من اطرافه الاربعة. ومن الواضح ان هذه الخطوط تاتي في تباين واضح مع لون المنطقه التي تعتليها لكي يمكن رؤيتها بوضوح. قد تكون هذه الخطوط من الجبس كما هو سائد حاليا في الكثير من حصون اليمن وقد تكون من حجارة ذات الوان بيضاء. وبالرغم من ان الوصف لاياتي على ذكر لون العمامة الا ان في رمزية اللون الابيض ونظرا لان العمامة عادة ماتكون بيضاء اللون تماما كالجبس فان اللون الابيض هو المرجح في هذه الخطوط. ومن المرجح ان البرج قد بني من الحجارة المهذبة تماما كما هو الحال عليه اليوم في الحصون السكنية بمحافظة صنعاء. هذا عن قصر غمدان باعتباره اشهر قصور اليمن. ومن قصور اليمن المشهورة ايضا قصر سلحين وهو حصن عظيم كان للتبابعة ملوك اليمن وقد ذكر ياقوت الحموي (١٣) ان سلحين بنيت في سبعين سنة وبني براقش ومعين وهما حصنان آخران بغسالة ايدي صناع سلحين، فلا يرى بسلحين اثر وهاتان قائمتان. وكما هو الحال في قصر غمدان فان بنائه هو الاخر ينسب الى الجن.

الحصون في شمال الجزيرة العربية

اذا كان من شبه المؤكد ان الحصون والقصور في جنوب الجزيرة العربية كانت على شكل ابراج فان الابراج في شمال الجزيرة العربية كانت عناصر اساسية في عمارة القصور والحصون كما سيتبين لنا في الامثلة التالي وصفها.

حصن الضيزن

يورد المسعودي (١٤) قصة طريفة تدل على بعض جوانب عمارة الحصون في شمال الجزيرة العربية. تتحدث القصة عن من ملك عربي يسمى الضيزن ابن معاوية وقد كان يروم البراري متنقلا مع افراد قبيلته في جنوب العراق وبلاد السواد. وقد قوبلت هذه التحركات بالامتعاض من قبل ملك الفرس شابور فضرب حصارا على الحصن لمدة شهر واحد غير ان ذلك لم يجد نفعا. رأت ابنة الضيزن واسمها الناضرة الملك الفارسي من اعلى الحصن فراته طويلا وسيما فارسلت له الرسالة الشفهية التالية " ان تزوجتني وجعلتني زوجتك المفضلة فسوف ادلك على طريق اقتحام الحصن" فقبل الملك عرضها فقالت : تعال الى الثرثار – وهو مجرى مائي – وضع قليلا من التبن في مجرى الماء وانظر اين سيذهب لانه سيؤدي الى المدخل السري للحصن. وهكذا اخذ الملك بقولها وتم اقتحام القصر وهدمه. وتزوج الملك من الناظرة الا انها رفضت معاشرته لغلظته فامر بسحبها بحصانين جموحين في اتجاهين مخالفين الى ان تقطعت اربا.

سيكون من المفيد والممتع حقا التحقق من قول الناضرة في هذه الرواية فيما يتعلق بمجرى الماء وعلاقته بمدخل الحصن بالرسوم المعمارية غير ان ذلك متعذر الان. وعلى اية حال فان هذا الوصف لاياتي على ذكر تفاصيل الحصن الا انه يدل على اهمية وجود مصدر للماء عند بناء الحصون في الجزيرة العربية فقد كانت الحصون تؤوي من بداخلها لفترات طويلة تحت الحصار وبالتالي فانه لابد من وجود الماء لتحمل هذا الحصار لفترات طويلة. كما يتضح ان ماء الحصن كان يجري في قنوات سرية تحت اساسه للتمويه في حال اقتحام الحصن. غير ان هذا الوصف لايذكر شيئا عن تفاصيل عمارة الحصن وعما اذاكان برجا ام بناءا مسطحا وان كان يستدل من القصه على انه كان برجا.

حصن الابلق

بني هذا الحصن (١٥) على يد السموأل ابن عاديا اليهودي فوق ربوة من الرمال بين الشام والحجاز. وقد سمي الابلق نظرا لان به بياض تخالطه حمرة. وقد يكون في ذلك استنتاج لمادة بناء الحصن. أي ان اللون الاساسي للتربة التي بني بها الحصن هو اللون الابيض كما يستنتج من القرى التي تبنى من نفس الطين اليوم في نفس المنطقة. اما الاحمرار فقد يكون مصاحبا للبياض أي ان التربة البيضاء والحمراء مزجتا معا لينتج لونا ابيض مشوبا بالحمرة. اما الاستنتاج الاخر فهو ان الاحمرار ربما اقتصر على مناطق معينة في الحصن كاطارات النوافذ او الابواب او كلون زخرفي. واذا اخذت بعض الابنية التقليدية في الجزيرة العربية وبلاد الشام كمثال حيث يتم طلاء النوافذ والابواب ونهايات المباني بالوان تختلف عن لون مادة البناء فربما كان ذلك اقرب الى الصواب. اما سبب تسميته بالفرد فعائد الى (١٦) حصانته وامتناعه على الغزاة ومنهم الزباء ملكة تدمر التي قصدت الحصن بغية اقتحامه فعجزت عن ذلك فقيل : تمرد مارد وعز الابلق وقد اشتهر الحصن نظرا للواقعة التالية:

كان امرؤ القيس (١٧) ابنا لملك كنده في وسط الجزيرة العربية. وعندما قتل بنو اسد اباه ذهب الى القيصر لمساعدته في الاخذ بثاره. وفي طريقه مر بالحصن فوجده " قلعة حصينة ذاهبة نحو السماء." وترك دروعه عند السموأل في الحصن. وعندما علم الحارث بن ظالم الغساني بذلك ذهب الى السموال في طلب الدروع. الا ان السموال رفض تسليمها له. عندها اخذ الحارث ابن السموال والذي

كان خارج الحصن رهينة وقال مخاطبا اباه " اعطني الدروع والا قتلت ابنك" فقال السموال انا لن انكث بوعدي فافعل مابدا لك. فقام الحارث بقتل الابن تحت ناظري ابيه. وعندها اشتهر السموال بالوفاء وقالت العرب " اوفى من السموأل. وقد قال امرؤ القيس قصيدة في وصف القصر تصفه بانه ذاهب في عنان السماء وكان مزودا ببئر ماء.ان مايسترعي الانتباه هنا هو عبارة " قلعة حصينة ذاهبة نحو السماء". وقد يستدل من وصف الحصن بالقلعة بانه كان مسورا او ان جدرانه من الخارج كان من الصعب جدا اقتحامها بدليل امتناعها على الحارث. اما عبارة " ذاهبة نحو السماء" ففيها دليل لايقبل الشك على ان الحصن كان برجا بالفعل. لايعرف عدد ادواره ولكن ذهابه نحو السماء يعني انه كان بناءا عاليا حقا. ويبدو ان الحصون القديمة في شمال الجزيرة العربية كانت تحتوي على ابراج عالية للجوء اليها عند الحاجة.

وفي ابيات تنسب الى الاعشى في ذكر الحصن:

ولاعاديا لم يمنع الموت ماله وحصن بتيماء اليهودي ابـــلق
بناه سليمان بن داوود حقبة له ازج عـــال وطـيء موثـق
يوازي كبيدات السماء ودونه بلاط ودارات وكلس وخنـــدق

يستنتج من البيت الاول الحادثة الشهيرة التي سبق ذكرها اعلاه وخلدت وفاء السموأل. اما نسبة بناء الحصن في الشطر الاول من البيت الثاني الى النبي سليمان فهي على الارجح من باب المبالغة في وصف البناء اذ درجت العادة على نسبة كل شيء عظيم وخصوصا في البناء الى النبي سليمان، كما يذهب في ذلك ايضا بعض الدارسين (١٨)، اما الازج فهو البناء العالي (١٩) وتعني طيء الذهاب بعيدا في الشيء وربما عنت في هذا السياق الارتفاع. ويؤكد الشطر الاول من البيت الثالث على ارتفاع الحصن وهو يوازي كبيداء (اواسط) السماء فهو يخترقها اختراقا. وفي هذا دليل على ارتفاعه واشارة الى المشقة والجهد التي بذل في سبيل بنائه. ويحتوي الشطر الثاني من البيت الثالث على مفردات تشير مباشرة الى عمارة الحصن. فقد يقصد بالبلاط ظاهر الارض المسواة اما بطبقة من الآجر او المسواة بطبقة من الحجارة المستوية. وقد يعني ايضا الحجارة. وقد يكون معنى التسوية بهدف الحصول على ارضية مستوية في الجزء الذي كان يستخدم فيه الحصن للمعيشة. اما البلاط بمعنى الحجر فربما كان البلاط حجارة متراكمة فوق بعض بهدف الحماية. اما الدارات فقد تكون حجرات الحصن في اعلاه او قد تكون حجرات الحصن التي تبنى حول الحصن عند قاعدته. وفي هذا دليل على اتساع الحصن وكثرة حجراته. وهي ايضا في سياق البيت دليل على كرم صاحبه. والكلس هو الطلاء من غير الاجر وهو على اية حال ليس مطلبا دفاعيا ولكنه اشارة الى بعض الجوانب الجمالية في الحصن. اما الخندق فهو معروف. قليلة هي المصادر التي اتت على ذكر الخنادق في الحصون القديمة. وهي تعتبر تجهيزات دفاعية فعالة في العمارة الحربية وعادت ماتزود بها الحصون والقلاع الكبيرة. وقد تملأ بالمياه او يتم تمويهها او قد تكون مكشوفة. وعلى اية حال فان وجود الخندق في عمارة الحصن ياتي متوافقا مع عجز الحارث بن ظالم الغساني عن اقتحام الحصن اذ ان الخندق خصوصا اذا ماكان عريضا يصعب من اقتحام الحصن.

وفي صورة معبرة نادرة عن عمارة الحصون والقلاع وطرق اقتحامها ومآلها بعد ذلك يورد النويري (٢٠) هذا المقطع في وصف قاض لقلعة تسمى قلعة نجم: ".....هي نجم في سحاب، وعقاب (بضم العين) في عقاب (بكسر العين)، وهامة لها الغمامة عمامة، وانملة اذا خضبها الاصيل كان الهلال لها قلامة، عاقدة حبوة صالحها الدهر ان لايحلها بقرعه، بادية عصمة صافحها الزمن على ان لايروعها بخلعه، فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لم تطبع طبع حمص في العقارب، وضربتها بحجارة اظهرت فيها العداوة المعلومة في الاقارب، فلم يكن غير ثلاثة الا وقد اثرت فيها الحجارة جدريا يضربها، ولم يصل الى السابعة الا والبحر مؤذن بنقبها، فاتسع الخرق على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، الى مولد من هو اليها طالع، وفتحت الابراج فكانت ابوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا" هذا الوصف البليغ للقلعة وهي تحت الحصار ومآلها يغني عن التعليق لحسنه وبلاغته وهو على اية حال مليء بالصور الجمالية لدى العرب وتشبيههم الدائم للابنية الحسنة بالانسان ولباسه او بالظواهر الطبيعية من حولهم، وقد صيغت نثرا.

حصن مارد

هو حصن بناه اكيدر بن عبد الملك ابن الحي (٢١) وهو يرجع في نسبه الى كندة وهو حصن شهير. يقع هذا الحصن في دومة الجندل في محافظة الجوف في شمال المملكة العربية السعودية. ومازالت اثار الحصن باقية الى اليوم وهو احد المواقع المدرجة على قائمة الاثار الوطنية في المملكة العربية السعودية. وقد اتى ذكره في كثير من كتب التراث غير ان معظم ماذكر لاياتي على الكثير من تفاصيل الحصن. يوضح شكل ٢ المسقط الافقي لحصن قلعة مارد كما تبدو عليه اليوم (٢٢) وهي عبارة عن جدار ضخم على شكل منحن يحوي بداخله بئر ماء وعددا من الدور وساحة رئيسية ومسجدا. اما الجزء الحربي منه فهو ايضا على شكل مستطيل وقد استدارت جدرانه للخارج وهو عبارة عن صفين من الجدران يفصل بينما خندق دفاعي عميق عند قاعدة الجدار الثاني. الجدار الثاني تتخلله ابراج مخروطية الشكل ومستديرة في مسقطها الافقي. وقد ترك وسط هذا الجزء مكشوفا كما جرت عليه العادة في الحصون التقليدية في المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية. ويبدو ان الاستخدام الدفاعي للحصن كان يتمركز اساسا حول الابراج الدفاعية والسور العريض الذي يوصل فيما بينها. وتكثر في الحصن السلالم التي تربط بين الابراج الدفاعية وباحة الحصن والفتحات التي تضيق نحو الخارج لكشف المناطق المحيطة وللدفاع عن الحصن. تشبه قلعة مارد مثيلاتها من القلاع في اواسط شبه الجزيرة العربية الا انها تختلف عنها في الارتفاع المفرط لاسوارها (شكل ٣) وفي انحناءات جدرانها الى الخارج مما يجعلها تبدو بيضاوية الشكل وبتعدد جدرانها وبوجود خنادق في قواعدها. اما مواد بناءها فهي مبنية من طوب اللبن. واذا كان حصن الابلق وقصر غمدان وقصور الحيرة كانت على شكل ابراج واسعة ومنفصلة عن محيطها المباشر لها فان حصن مارد عبارة عن صفين او اكثر من الجدران الدائرية الشكل التي تنتهي في زواياها الاربع بابراج مخروطية دقيقة الشكل. وبالرغم من ان هذا تكوينا افقيا في اساسه الا ان ارتفاع الاسوار وعدد الابراج الاربعة يجعل من هذا البناء بناءا عموديا وان اختلف في شكله عن التصورات التي تم استنتاجها من الحصون التي سبق ذكرها انفا.

حصون الحيرة

في معرض وصفه لفتح الحيرة من قبل المسلمين بقيادة خالد ابن الوليد يلقي الطبري (٢٣) الضوء على بعض اوجه العمارة في هذا الجزء من جزيرة العرب. فقد كان في المدينة عدد من القصور تستخدم كملاجيء عند الحرب. وكان كل من هذه القصور خاصا بعائلة واحدة فقط ومن هذه القصور: القصر الابيض، الخورنق، قصر بني مازن وقصر ابن بقيلة. وقد تم استهداف كل قصر من هذه القصور بمجموعة من المحاربين تحت زعامة امير قبلي. حاصر المسلمون القصور وخيروا من فيها بين الاسلام، او دفع الجزية او المنابذة. وعندها بدأ الفريقان بالتراشق بالسهام وفجأة صاح من بداخل القصور " عليكم بالخزازيف". فامر ضرار ابن الازور جنوده باتقاء هذه بالاختباء خلف جدران اسطح هذه القصور ورميهم بالسهام وعندها انهزم المدافعون وتم فتح القصور الاربعة بالطريقة نفسها. وقد هدمت هذه الحصون جميعها (٢٤) واستخدمت حجارتها في بناء جامع الكوفة.

في هذا المشهد بعض الجوانب التي يجب الوقف عندها قليلا. يتضح اولا انه كان لكل عائلة حصنها الخاص بها تتحصن فيه اثناء الحرب. ليس من المعروف ان كانت هذه الحصون تستخدم للسكنى ولكنه يبدو كذلك. اذ ان تواجد عدد من الحصون بجوار بعضها البعض يعني انها كانت تشكل مستوطنة سكنية وليس للحمايه فقط. كما انه من غير من الممكن بناء مساكن مستقلة عن الحصون لان في ذلك هدرا للجهود التي تبذل في البناء كما ان التنقل بين الحصن والمسكن فيه ضرر لاصحابه اثناء الحصار مما قد يتسبب في هلاكهم. وبالتالي فانه من المرجح ان يكون الحصن السكني هو حصن دفاعي ايضا تماما كما هو الحال في بعض مناطق الجزيرة العربية حيث تسمى الابراج السكنية (٢٥) بالحصون. كما ان اسماء هذه الحصون تلقي الضوء على بعض الجوانب الاجتماعية والمعمارية المتعلقة بها. اثنان من الحصون المذكورة سميت باسماء العوائل التي تقطنها (بني مازن، ابن بقيلة) وواحد سمي للونه الابيض. من غير المؤكد ان كان لون الحصن ابيضا فعلا ام ان التسمية هنا مجازية. تسمية الحصن باسم فرع من فروع القبيلة امر شائع في كثير من مناطق الجزيرة العربية وفي منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية كمثال يطلق اسم القبيلة او احد بطونها على الحصن اعتزازا وتيمنا باسم القبيلة التي يحمل البرج اسمها. اما مسمى بني مازن تحديدا فهناك عدد من القرى وفروع القبائل التي تحمل نفس الاسم بمنطقة عسير. كما ان العديد من الحصون ايضا في منطقة عسير تسمى الحصن الابيض (٢٦) نظرا لانه من الخارج يتم طلاؤه باللون الابيض. اما القصر الرابع وهو الخورنق فهو قصر مشهور بناه النعمان ملك الحيرة وهو القصر الذي شهد واقعة القاء بانيه سنمار (٢٧) من اعلاه مما يدل على انه هو الاخر كان برجا عاليا في السماء. ان تسمية الحصون بأسماء الاعلام من الرجال عادة قديمة ترجع الى عصور ماقبل الاسلام فقد عرف حكام اليمن في القدم باسماء حصونهم حيث كان كل ملك ينسب الى القصر الذي بناه فيقال ذو ريدان، وذو الكلاع، وذو كوكبان، وغيرها.

تستحق عبارة "عليكم بالخزازيف" الوارد ذكرها في وصف الطبري وقفة بسيطة. الخزازيف مشتقة من الخزف (٢٨) وهي المادة الطينية التي تصنع منها الادوات الفخارية التي تستعمل في شتى الاغراض اليومية. والخزف اصلا مادة طينية يتم عجنها بالماء ثم حرقها لتكتسب صلابة. كما ان الخزف يستخدم في صناعة الطوب الذي يستخدم في البناء. لايعرف من سياق الحديث السابق ان

كانت الخزازيف ماخوذة من البناء نفسه ام انها ماخوذة من قطع الفخار اتي كانت تحتويها هذه الحصون. ويبدو ان ماقصد بالعبارة استخدام شظايا المواد الخزفية وهي شظايا حادة وصلبة كقذائف باتجاه الخصوم. وعلى اية حال فان وجود الخزف يؤكد على ان تقنية حرق الطين وشيه ليكسب صلابة كانت معروفة في الحيرة ابان الفتح الاسلامي لها. يبقى انتقال هذه التقنية الى البناء موضعا للنقاش. واذا ماعرف ان هذا الاسلوب من البناء قد عرف منذ القدم وانتشر في بلاد الرافدين وبلاد فارس فانه من المرجح ان تكون حصون الحيرة قد بنيت بنفس الاسلوب. كما يمكن استنتاج بعض جوانب استخدام هذه الحصون من الطريقة التي تم اقتحامها بها. بداية فانه لايتم الاقتحام الا بعد مشاورات بين الجانبين المتحاربين كما ورد في العبارة وهذه اعراف قبلية مازالت سائدة الى اليوم في كثير من شؤون الحياة الاجتماعية بين سكان القبائل في الجزيرة العربية. ويتضح ايضا ان استفراد كل حصن على حدة وتركيز الهجوم عليه اجدى للمهاجمين لانه يركز جهودهم الحربية نحو هدف واحد بدلا من تفريق هذه الجهود على اهداف عدة. كما ان استهداف الحصن الواحد يحرم المدافعين – بحكم انفصاله وانقطاع اهله عن الحصون المجاورة – من مساعدة المدافعين في الحصون المجاورة مما يسهل من عملية الاقتحام.

يذكر هذا الوصف للطبري بحادثة سقوط قلعة ريدة– اخر معاقل امارة ال عائض المحلية في اقليم عسير – قبل انضوائها تحت الحكم السعودي في بدايات القرن العشرين (شكل ٤) على ايدي القوات العثمانية كما ورد في المقطع التالي(٢٩):

"وعلى الرغم من الشجاعة الفائقة التي ابداها العسيريون، الا ان موقعهم قد اصبح سجنا لهم، لكون القوات العثمانية احكمت الحصار عليهم من كل الجهات، فوزعت المخافر من كل الجهات ومنعت الدخول والخروج من ريدة واليها. وقد استخدم العثمانيون مدافعهم بدرجة كبيرة لفتح ثغرات القلاع ونوعوا هجماتهم على تلك القلاع، فركزوا على كل حصن على حدة، وقد قابلهم العسيريون بمقاومة عنيفة حتى ان احدى المعارك حول احد الحصون استخدمت فيها كل انواع الاسلحة، ووصل القتال الى حد استعمال السلاح الابيض الى ان اجبروا القوات المهاجمة الى الابتعاد. كما استعمل العسيريون القنابل اليدوية في تلك المعارك، بالاضافة الى استخدام مدافع (اويوس) ضد القوات المهاجمة"

في المقطع السابق استخدت كلمة القلاع والحصون للدلالة على نفس البناء وهو عبارة عن اربعة ابراج مبنية من الحجر المليس بمادة اسمنتية محلية تسمى "القضاض". يبلغ علو البرج الواحد اربعة ادوار تحتوي على المؤونة والذخائر. وقد سمي كل برج منها باسماء القبائل المشهورة بالمنطقة لاستنهاض روح القتال لدى المدافعين عن القلعة. يحيط بهذه الابراج جدار عال وسميك ينتهي باربعة ابراج دائرية في زواياه الاربع لحماية سور القلعة. موقع القلعة في منطقة تهامة الداخلية في موقع حصين للغاية تجعل من الوصول اليها امرا بالغ الصعوبة. كما ان الموقع مشهور بخصوبته وبعيون الماء دائمة الجريان وبمدرجاته الزراعية التي تجعل منه مكانا مميزا بالفعل. ومن الوصف السابق تتضح اوجه الشبه بين عملية اقتحام حصون الحيرة وعملية اقتحام حصون قلعة ريدة بالرغم من الفارق الزمني والجغرافي بين الحالتين.

يرد في وصف الطبري لاحداث الفتح هذه العبارة :" وعندما استقظ المسلمون وجدوهم مشرفون عليهم" عبارة مشرفون الواردة في النص تدل على ارتفاع موقع المدافعين على المهاجمين مما يرجح من

امكانية بناء الابراج او الجدران المحيطة بها لحمايتها من المهاجمين. ولم يتسن من هذا الوصف معرفة ماذا كانت الحيرة مدينة ذات اسوار وبوابات او خنادق. وعندها تتعزز الافتراضية التي تقول بان الابراج كانت هي وسيلة الحماية الوحيدة للمدينة. يتضح من هذا الوصف ان هذه القصور قد بنيت على شكل ابراج. كما ورد في وصف الطبري ايضا عبارة " راس القصر" وهي ترجح شكلا عموديا للبناء. اذ ان الابنية ذات التمدد الفقي تفتقر الى مفردات مشابهة كمفردة الراس. كما ان احتماء المدافعين خلف جدران اسطح القصور يدل على ان هذه القصور كانت اعلى من الارضية التي كان يقف فوقها المهاجمون وقد تكون هذه الاسطح لابراج عالية او قد تكون لابنية ذات ارتفاع دور واحد او دورين. وفي هذه الحالة فربما كانت الاسطح المشار اليها هنا هي اسطح الجدران المحيطة بالابراج التي في الوسط تماما كما هو الحال في معظم الحصون في ارجاء الجزيرة العربية اليوم.

يعطي الطبري في موضع اخر (٣٠) دليلا على الارتباط العرقي بين سكان الحيرة وجنوب غرب الجزيرة العربية. وهي ان احد التبابعة وهم ملوك اليمن القدماء خرج بجيشه شمالا الى ان وصل ظاهر الكوفة وهم غير عارفين بالموضع الذي هم فيه فسموه الحيرة. وبعد شهر توجه الملك شرقا بجزء من جيشه مخلفا جزءا اخر في الحيرة. وبعد عودته من الشرق وجد جنده قد استوطنوا المكان. هؤلاؤ الجند كانوا خليطا من عدد من القبائل العربية القحطانية التي تتحدر من جنوب وجنوب غرب الجزيرة العربية. وبالتالي فانه من الممكن تماما ان هؤلاء المستوطنون الاوائل استمروا في بناء حصونهم الحربية على شكل ابراج كما كانوا يفعلون في مواطنهم الاصلية التي نزحوا منها.

وهكذا يدل تعدد حصون الحيرة وتسمية هذه الحصون باسماء قاطنيها ان الابراج كانت وسائل الدفاع الرئيسية وبذلك يمكن الاستنتاج ولو مبدئيا بان الحيرة لم تكن مدينة مسورة في معظمها وانما كانت عبارة عن تجمعات سكنية تتمركز حول حصون تفي بالاغراض الدفاعية كذلك. ومن المرجح ان تكون هذه الحصون او بعضها مسورا او محاطا بخنادق مائية زيادة في تحصيناتها الدفاعية. ان انماط الاستيطان التي كان يتبعها الفاتحون العرب في سكناهم للحواضر الجديدة تعزز من هذا الافتراض. فقد كانت كل عشيرة (٣١) تستوطن ناحية من المدينة التي تصبح تجمعا متجاورا لعدد من الاحياء القبلية حيث يعتمد كل حي على حصونه الدفاعية وبالتالي انتفت الحاجة الى بناء سور واحد جامع للمدينة.

الابراج ونقوش الفسيفساء في الجامع الاموي بدمشق

يحتوي الجامع الاموي في دمشق على مساحات كثيرة من نقوش الفسيفساء التي تزين كثيرا من بوائكه وجدران قاعة الصلاة. هذه الزخارف تنقل صورا طبيعية لقرى وبساتين واشجار وكانها تجسيد طبيعي لقرى كانت موجودة عند رسم هذه النقوش. يرى الكثير من المؤرخين (٣٢) ان هذه المناظر ماخوذة من الريف السوري المجاور فالاشجار العالية والمساحات الخضراء والمياه المتدفقة موجودة بكثرة في حوض نهر بردى الذي تقع عليه دمشق. وهذا امر مفهوم ومنطقي اذ ان الجوار المباشر لحوض نهر بردى هو اقرب مايتبادر الى الذهن في مثل هذه الحالة.

غير ان النظرة الفاحصة لتفاصيل هذه المناظر توحي بما هو اكثر من ذلك. يمثل شكل ٥ واحدا

من هذه المناظر. في الجزء الايمن من هذا المنظر ثلاثة ابراج ذات اسقف مائلة وهي من الصغر بحيث انه يبدو انه من الصعب تصور ان كانت ابراجا سكنية. غير ان ماهو مثير حقا في هذه الابراج هو ابوابها المرتفعة. يبدو من الشكل ان هذه الابواب العالية خارج المالوف غائرة للداخل وبسمك حائط البناء نفسه كما انها خالية من أي زخرف ولايحيط بها اعمدة. يمثل شكل ٦ واحدا من المناظر التي يزدان بها الجامع. الشكل مقسوم الى نصفين. في النصف الاسفل من الصورة هناك عدد من الاقواس وخلفها عدد اخر من الاعمدة التي تحمل اسقفا مائلة او ذات قباب صغيرة. النصف العلوي من الصورة يتوسطه برج ذو باب بعلو مفرط مشابه لذلك الذي في الشكل السابق. يعلو هذا الباب نافذه. اما سقف البرج فهو منحن الى الاسفل ومائل من الاعلى. والى جانب البرج هناك بناءان – ربما كانا يمثلان قصرا او كنيسة – وقد وضعا الى جانب البرج بشكل متماثل. الواحد منهما مستطيل الشكل وينتهي في امامية الصورة بمسقط منحني الشكل اما واجهته فهي عبارة عن باب ذي ارتفاع اعتيادي يعلوه ثلاث نوافذ صغيرة متساوية في الحجم. اما السقف فهو مائل باتجاهين وفي الخلف هناك قبة وقد رسمت بشكل دائري. ويتكرر هذا المشهد في البناء الاخر. ان مايلفت الانتباه حقا في هذه الصورة هو التجويف في منتصف البرج الذي في وسط الصورة. من الملاحظ ان هذا التجويف ذي العلو المفرط تعلوه نافذة في الاعلى كما ان التجويف هو في منتصف البرج وبالتالي فهو ليس عنصرا اضافيا متكررا كما هو حال الاعمدة على سبيل المثال. هذا التجويف ليس محصلة وضع عمود بجوار اخر كما هو الحال في اسفل الصورة. ولكنه شق اجوف في جدار البرج من منتصفه. كما يمثل شكل ٧ منظرا لبرج اخر ذي تجويف عمودي مشابه لمثيله في الشكلين السابقين. يلاحظ ان التجويفات الراسية في هذه الابراج تقع ضمن الواجهة الاطول للبرج. كما انها ذات عمق مما يؤكد بان هذه التجويفات محفورة في جدران هذه الابراج وليست تجويفات سطحية فقط.

من الناحية البصرية تبدو هذه التجويفات مشابهة كثيرا للنحور في حصون منطقة عسير بالمملكة. والنحر(شكل ٨) هو تجويف عمودي في الواجهة الامامية للحصن (٣٣) يعتلي مدخله وهو عنصر انشائي ودفاعي معا. كما ان وجود النوافذ في اعلاها يجعلها قريبة الشبه حقا بحصون النحر التقليدية في عسير. وبالتالي فانه من الممكن ان تكون هذه الابواب ذات العلو غير المعهود هي لابراج ذات تجاويف عمودية مشابهة لابراج النحر التي مازالت قائمة الى الان في عسير. هذا لايعني ابدا ان هذه الابراج هي نفسها الابراج التي مازالت ماثلة الى العيان اليوم في عسير.ولكن يبدو ان عمارة الابراج ذات التجاويف العالية (تسمى النحور في منطقة عسير) كانت سائدة في اماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية واطرافها وفي بلاد الشام كما يتبين من نقوش الفسيفساء هذه.

في معرض بحثه عن اصول ابراج قصر الحاير الشرقي يورد كريسويل (٣٤) وصفا مفصلا لاحد الابراج الحربية (شكل ٩) في شمال سوريا. وهو يؤكد في وصفه على كيفية استخدام البرج حيث يلاحظ صغر فتحة المدخل المؤدية الى جوف البرج. وهو غير مسقوف في الاعلى وهذا يعني ان الحصن كان حصنا دفاعيا. الصعود الى الحصن كان يتم عبر درج في اسفله اما في نصفه العلوي فيختفي الدرج ويتم الصعود الى اعلى البرج بالحبال او ببرزات خشبية ناتئة من جسم البرج وذلك لاسباب دفاعية. كما ان البرج مصمت الا من فتحات صغيرة تضيق باتجاه الخارج وهي سمة اساسية للحصون الدفاعية. هذا النوع من الابراج منتشر بكثرة في منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية (

شكل ١٠) باختلاف طفيف في بعض التفاصيل. هذه السمات المشتركة في بناء الابراج الدفاعية يؤكد على ان الابراج الحربية المفردة كانت سمة سائدة في الجزيرة العربية وجنوب بلاد الشام وربما كان للتقارب الجغرافي والرحلات المتبادلة بين الجزيرة العربية وبلاد الشام دور في ذلك. اذ انه من الناحية الجغرافية تعتبر بلاد الشام هي المحطة الاولى التي كان يتوقف عندها عرب الجزيرة في خروجهم من الجزيرة العربية اما لاسباب التجارة او بسبب الفتح الاسلامي. ولذلك فقد كان هناك تبادل حضاري بين سكان غرب الجزيرة العربية وبلاد الشام مما يمهد لقيام تاثيرات متبادلة في شتى الميادين ومنها العمارة. وربما كان التاثر بعمارة الابراج القديمة في الجزيرة العربية شمالها وجنوبها مثال واضح على ذلك.

في معرض وصفها لهذه الابراج تنسب مارغريت فان برشم (٣٥) هذه الابراج في نقوش الجامع الاموي الى ابراج معابد الصين القديمة(الباجودا) تماما كما فعل فيلبي (٣٦) عند ترحاله في منطقة عسير، وكما فعل جرومان (٣٧) في بحثه في المعابد اليمنية القديمة وعلاقتها بصفوف الرقف بمنطقة عسير. ويبدو من هذه المقارنات الثلاث الاشارات القوية الى مصدر محتمل لابراج وتجويفات ابراج نقوش الجامع الاموي: عسير. وهكذا يبدو من هذه الرسومات ان الابراج كانت منتشرة في شتى انحاء الجزيرة العربية وصولا الى دمشق. وذلك امر مفهوم تماما. فالابراج وخصوصا الحربية منها تنتشر بكثرة في المجتمعات ذات التكوين القبلي التي تمتهن الزراعة والرعي والتي تقطن في قرى قليلة صغيرة لعدم قدرة هذه المجتمعات على بناء وسائل دفاعية اكثر تطورا كالاسوار والخنادق. اما المجتمعات المتنقلة فانها هي الاخرى تبني ابراجها الدفاعية وان بصورة اقل وللاستخدام المؤقت. كما ان هناك من المراجع (٣٨) مايؤكد على ان عمارة الابراج كانت سائدة في عصر ماقبل الاسلام واستمرت كذلك في العصور الاسلامية المبكرة كما تشهد بذلك فسيفساء الجامع الاموي في دمشق.

هذا فيما يتعلق بالجانب التاريخي لعمارة الحصون (الابراج) في شبه الجزيرة العربية، اما فيما يتعلق بجغرافيا الحصون والقلاع الحربية فان الحصون في شبه الجزيرة العربية تاتي امتدادا لمثيلاتها المنتشرة في طول العالم الاسلامي وعرضه. يمكن التمييز هنا بين الاستخدام الوظيفي للابراج ومواقعها التي تبنى فيها وفي اسلوب بنائها وفي مرجعيتها الجغرافية. هناك الابراج السكنية وتعتبر اليمن المثال الاشهر في العالم الاسلامي على تسيد عمارة الابراج للمشهد العمراني برمته. هناك ايضا انتشار واسع للابراج السكنية في انحاء واسعة من العالم الاسلامي ولكن بدرجات اقل بكثير مما هي عليه في اليمن مثل منطقة عسير في جنوب غرب المملكة العربية السعودية وقرى جبال اطلس في المغرب العربي و الابراج السكنية المكتظة في بعض الحواضر الاسلامية كالقاهرة ومكة المكرمة وجدة ومدينة سواكن المندثرة المقابلة لها على الضفة الغربية للبحر الاحمر. كما تنتشر الابراج السكنية ايضا في اجزاء متفرقة من اواسط آسيا وافغانستان وشمال الهند. على ان الابراج هي تعبير حربي في الاساس ولذلك فقد عرفت اكثر بارتباطها بالتحصينات العسكرية واسوار وبوابات المدن الاسلامية. ولاتكاد تخلو مدينة مسورة في طول العالم الاسلامي وعرضه من عدد من الابراج لحماية السور. وبالامكان ذكر عدد كبير من الامثلة على ذلك. وتبقى الاعتبارات الدفاعية هي العامل الاساسي في عمارة هذه الابراج من حيث الموقع والحجم والتفاصيل المعمارية. تاتي بوابات الكثير من الحواضر الاسلامية على اشكال ابراج مفردة او مزدوجة ذات فتحات ودهاليز متعرجة ومموهة احيانا لمزيرد من

الحماية. كما تنتشر الابراج على اسوار القلاع ومحطات القوافل والاربطة العسكرية لحمايتها. اما في الفيافي والقفار فتنتشر الابراج المفردة للمراقبة والاختباء وللاتصال اما عن طريق الاشارة او الدخان او النار عن بعد وهو مايشي باصولها القديمة. ونظرا للطبيعة الهندسية العمودية للابراج فانها تصبح بمرور الوقت علامات للملكية وشواهد على الطرق والمكان.

هذا فيما يتعلق بالحواضر و تجمعات الاستيطان باختلاف اشكالها التي سكنها العرب ولكن ماذا عن البدو ومالذي دفع بشريحة واسعة من العرب وهم البدو الى تجنب الاستقرار والبناء والاكتفاء بالتنقل في البراري في بيوت من الشعر مع مايصاحب ذلك من مشقة ونصب. ورد في مروج الذهب للمسعودي (٣٩)

– "وذكر اخرون ان القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الاخطار، ونبل الهمم والاقدار، وشدة الأنفة، والحمية من المعرة، والهرب من العار، بدأت بالتفكير في المنازل، والتقدير للمواطن، فتأملوا شأن المدن والابنية، فوجدوا فيها معرة ونقصا، وقال ذو المعرفة والتميز (منهم) : ان الارضين تمرض كما تمرض الاجسام، وتلحقها الآفات. والواجب تخير المواضع بحسب احوالها من الصلاح. اذ الهواء ربما قوى فأضر باجسام سكانه، واحال امزجة قطانه، وقال ذوو الآراء منهم: ان الابنية والتحويط حصر عن التصرف في الارض: ومقطعة عن الجولان، وتقييد لهمم، وحبس لما في الغرائز من المسابقة الى الشرف، ولا خير في اللبث على هذه الحالة. وزعموا ايضا ان الابنية والاطلال تحصر الغذاء وتمنع اتساع الهواء, وتسد سروحه عن المرور وقذاه عن السلوك، فسكنوا البر الافيح الذي لايخافون فيه من حصر ومنازلة ضر، هذا مع ارتفاع الاقذاء، وسماحة الاهواء، واعتزال الوباء، ومع تهذيب الاحلام في هذه المواطن، ونقاء القرائح في التنقل في المساكن، مع صحة الامزجة، وقوة الفطنة، وصفاء الالوان وصيانة الاجسام. فان العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء (وطبع الهواء الفضاء) وفي هذا الامن من العاهات والاسقام والعلل والآلام، فآثرت العرب سكنى البوادي والحلول في البيداء، فهم اقوى الناس هممًا، واشدهم احلاما، واصحهم اجساما، واعزهم جارا، واحماهم ذمارا، وافضلهم جوارا، واجودهم فطنا لما اكسبهم اياه صفاء الجو ونقاء الفضاء، لان الابدان تحتوي اجزاؤها على متكاثف الاكدار وعناء الاقذار مما يرتفع اليه، ويتلاطم في عرصاته وافقه من جميع المستحيلات، والمستنقعات من المياه، ففي اكناف جميع ما يتصعد اليه، ولذلك تراكبت الاقذاء والادواء والعاهات في اهل المدن، وتركبت اجسامهم وتضاعفت في اشعارهم وابصارهم، ففضلت العرب على سائر من عداها من بوادي الامم المتفرقة لما ذكرنا من تخيرها الاماكن وارتيادها المواطن."

من هذا الوصف المطول تتضح جوانب عدة من الاعتبارت التي كان يأخذ بها العرب في اسلوب عيشهم. ومن الواضح ان النزعة الى التفرد والاستقلال التي توفرها حياة البدو والتي تتعارض اساسا مع نزعة التوافق والتكامل في الحواضر هي التي دفعت البدو الى تجنب الحواضر وسكنى الفيافي والقفار. وعلى اية حال فان هذا المقطع – لاحتوائه على جوانب تفصيلية كثيرة في شؤون العمران البدوي بحاجة الى قراءة اخرى في دراسات قادمة ان شاء الله.

الخاتمة

ان محاولة تكوين صورة مبسطة لما كانت عليه عمارة الحصون والقلاع قبيل واثناء بزوغ فجر

الاسلام في شبه الجزيرة العربية تصطدم بطرق دراسة هذه العمارة والاستنتاجات المترتبة عليها. فنظرا لقلة الكشوفات الاثرية وانتقائيتها احيانا والتفاسير المختلفة الناتجة عنها من جهة ونظرا لاغفال المؤرخين والجغرافيين العرب وكتاب السير الجوانب المتعلقة بالعمران عموما من جهة اخرى فان الباحث مرغم على محاولة اعادة قراءة ماورد في هذه الكتب عن هذه العمارة وهو ليس بالشيء الكثير على اية حال واعادة فهمه باسلوب لغوي يتفق مع الروايات التاريخية قدر الامكان. و ذلك يتطلب الماما دقيقا بالمصطلحات وتفسيرا لها قد لايؤدي بالضرورة الى استنتاج دقيق. ومن هنا تاتي الحاجة الى اتباع وسائل اخرى في التاريخ الاجتماعي وطرق اكثر سرعة وشمولية في مجال التنقيبات الاثرية. وعلى اية حال يبدو ان عمارة الحصون في الجزيرة العربية ابان فجر الاسلام تشترك في بعض الامور اذ ان موقع الحصن يجب ان يتم اختياره بدقة وفي موقع محصن من الناحية الطبيعية وان يحتوي على مصدر دائم للماء اما عمارة هذه الحصون فمن المرجح ان الابراج كانت هي الشكل الرئيسي المفضل للدفاع وهذا يتفق تماما مع التكوين القبلي لسكان الجزيرة العربية حيث الاحتماء بالبرج الوسيلة الانسب للبقاء. وربما كان لانشغال الفاتحين بامور الحرب والانتقال الى مناطق جديدة دور في ذلك. على اية حال فان اسوار المدن الاسلامية المعروفة لم تكن تبن عند بداية نشوئها وانما كانت تبنى في اوقات لاحقة عندما ينصهر المجتمع القبلي في وحدة واحدة وتحت امرة حاكم قوي يستطيع معها ان يقوم بهذه المهمة بعد استتباب الأمن والانصراف الى امور البناء. هكذا تعكس عمارة الحصون وضعا اجتماعيا قبليا لم يرق الى نوع متقدم من التحصينات العسكرية التي عرفت بها بعض الحواضر الاسلامية لاحقا وذلك عائد للطبيعة القبلية والمجتمع المتنقل للعرب عند بزوغ فجر الاسلام. اما من حيث التفاصيل المعمارية لهذه الابراج فانها تختلف من منطقة الى اخرى تبعا للنمط المعماري التقليدي السائد في كل منطقة على حدة. وعلى اية حال فان نتائج هذا البحث لاتعدو كونها مقدمة لتكوين صورة بسيطة عما كانت عليه بعض المعالم المعمارية التي كانت يوما ما شواهد معمارية يشار اليها بالبنان. ولذلك فان البحث في منهجيته وفي استنتاجاته مازال بحاجة الى المتابعة والاستمرار.

الهوامش والتعليقات

(١) نظرا لطبيعة علم الاثار واتساع دائرة اهتمامه واختلاف مناهجه ليشمل كل مايقع تحت الارض فان الاهتمام بما فوق الارض من عمران وبناء يبقى امرا ثانويا نادرا مايرد في علم الاثار وهو اختلاف هيكلي في المنهج والاهداف بين علم الاثار وبين اعادة كتابة تاريخ العمارة بوجه عام.

(٢) بطبيعة الحال فان الاهتمام بتسجيل الوقائع والأحداث التاريخية والاهتمام بأسماء المواضع والأعلام والسير وذكر تفاصيل الأحداث التاريخية كان هو محور كتابات المؤرخين والجغرافيين وبالتالي فان الاهتمام بتفاصيل الظواهر العمرانية تلقائيا ينسحب إلى الظل. ويكاد ينطبق ذلك على معظم أمهات الكتب في السير والتاريخ والجغرافيا بما فيها تلك المستخدمة في هذا البحث.

(٣) على سبيل المثال عند وصف موضع جغرافي ما يكتفي المصدر بذكر اسم الموضع وانه حصن للجماعة التي تسكنه من دون ذكر تفاصيل أخرى من شانها أن تلقي الضوء على تفاصيل

عمارته.

(٤) من ذلك مثلا حوليات الآثار في المملكة العربية السعودي: أطلال، أو النشرات الفصلية التي تنشرها بين حين وآخر الجهات المعنية ذات العلاقة في دول شبه الجزيرة العربية

(٥) الهمداني، الإكليل، الجزء الثامن، تحرير: فارس، ١٩٤٠، برنستون، ٨

(٦) القزويني، آثار البلاد واخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠، ٥١

(7) Khury, N., The dome of the rock, the Kaba, and Ghumdan: Arab myths and Umayyad monuments, Muqarnas, V. 10, 1993, Leaden, 60,

(٨) المسعودي، مروج الذهب، تحرير: داغر، ١٩٧٨، بيروت، ٢٢٨

(٩) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٧، الجزء الرابع، ٢١٠

(١٠) ابن منظور، لسان العرب، مادة طبق، الجزء العاشر، ١٩٩٧، ٢٠٩

(١١) الدملوجي، سمر، وادي حضرموت، هندسة العمارة الطينية، مدينتا شبام وتريم، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان،، ١٩٩٥، ٨٣

(١٢) الهمداني، مرجع سابق، ١٢

(١٣)) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٧، الجزء الثالث، ٢٣٥

(١٤) المسعودي، مرجع سابق، ٢٣٠

(١٥) القزويني، مرجع سابق، ٧٣

(١٦) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، الجزء الاول، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، الجزء الاول، ٧٥

(١٧) الحموي، ياقوت، مصدر سابق، ٧٦

(١٨) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء السادس، ١٩٩٦، ٥٧٩

(١٩) ابن منظور، مرجع سابق، مادة ازج، الجزءالثاني، ١٩٩٧، ٢٠٨

(٢٠) النويري، نهاية الارب في فنون الادب، ١٩٢٣، دار الفكر، القاهرة ٤٠٢

(٢١) الزبيدي، محمد، تاج العروس، المجلد الثاني، مكتبة الحياة، بيروت، ٥٠٠

(٢٢) وزارة الشؤون البلدية والقروية، التراث العمراني في المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣، الرياض، ٢٣٢

(٢٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، المكتبة العلمية، بيروت ١٩٨٧، ٣١٥

(٢٤) جواد علي، مرجع سابق، ٩٧٧

(25) Prochaska, The architecture of the Saudi Arabian Southwest, Proceedings of seminar for Arabian Studies, V.7, 1977, 129

(26) Dostal, Ethnographic Atlas of Asir, 1983, Vienna, 122

(٢٧) الحموي، ياقوت، مرجع سابق، ٤٠١

(٢٨) ابن منظور، مرجع سابق، مادة خزف، الجزء التاسع، ١٩٩٧، ٦٧

(٢٩) العسيري، علي، عسير، دراسة تاريخية، نادي ابها الادبي، ١٩٨٧، ٣٧٢

(٣٠)الطبري، محمد بن جرير، مرجع سابق، ٤١٦

(31) Kubiak, W., Al-Fustat, its foundation and early development, 1987, Cairo,

(32) A.C.Creswell, Early Muslim Architecture, revised ed., I, 1979, Oxford, 228
(33) Al-Jawahrah, H., The native architecture of Asir region in Saudi Arabia, Edinburgh University, 1996
(34) A.C.Creswell, Early Muslim Architecture, revised ed., I, 1979, Oxford, 331
(35) A.C.Creswell, Early Muslim Architecture, revised ed., I, 1979, Oxford, 333
(36) Philby, J., Arabian Highlands, 1976, new York, 147
(37) Grohmann, A, Arabia, Encyclopedia of World Art I, 1972, oxford, pp.514-562
(38) King, G., The traditional architecture of Saudi Arabia, I.B.Taurus, London, 1998, 210
(٣٩) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، الجزء الثاني، ١٩٧٣، ١٢٠-١٢١